الخاتمة

تعد الثقافة ـ قديماً وحديثاً ـ الوجه الأنصع للحضارة، ومن ثم فهي بمعناها الوجودي والأنثروبولوجي تتصدر حياة الأمم الحية، وتشغل بال كل فرد فيها... لأنها تمتلك في بنيتها رؤية صنع الأحداث الجسام، وتوجيه المتغيرات الأساسية في حياة الناس على مختلف الصُعُد لبناء المستقبل الفاعل.

ولعلّ من أعظم التحولات الفكرية الوطنية والاجتماعية والإنسانية ما يتجلى بفكرة التحرر من الاستعمار، أو الدعوة إلى التحرر من التخلف والجهل والتبعية.... وهو ما أطلق عليه في تاريخنا الفكري والسياسي والأدبي والاجتماعي فكرة الجهاد بالنفس والمال... فما آل إليه التفكير العربي يبعث على الخوف... ليس ـ فقط ـ على اعتبار أننا أخذنا نحاكم تاريخنا النضالي القريب والبعيد، وفق الرؤى الإيديولوجية الجديدة، بل على اعتبار أننا أخذنا نؤمن بمفاهيم الآخر المناقض لنا في فلسفته، وتفسيراته لكل ما ورثناه من قيم ومبادئ، لأنه الأقوى عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وإعلامياً وتقنياً وعلمياً و.....

ومن هنا نرى أن فكرة الجهاد المقابلة للكفاح التحرري حملت كل تشوهات الفكر الغربي وثقافته وسلوكه فصارت تلتصق بمفهوم قتل الأبرياء، وإرهابهم، وترويع الآمنين المطمئنين... وكل من يدعو إليها فهو إرهابي لا يملك من الحضارة والأخلاق والإنسانية شيئاً... وما دام الإسلام يتبنى فكرة الجهاد في تعاليمه وعقيدته فهو قرين للإرهاب أو الرعب أو الهول (Terrorism) ومن ثم صار المسلم أو العربي إرهابياً ناشراً للرعب (Terrorists).

ومهما قيل في هذا الشأن فإن العرب لا يختلفون عن بقية المجموعات البشرية في نهج سبيل المقاومة وبيان ماهيتها وجدواها في تخليص الذات الفردية والجماعية والأوطان من القهر والسيطرة والاحتلال واستغلال الموارد البشرية لحساب الأقوى؛ علماً بأن المقاومة منذ قديم الزمان قد أخذت أنواعاً شملت

كل جوانب الحياة مادية وروحية؛ ثقافية وسياسية، اقتصادية وتقنية، علمية وإعلامية و.. فردية وجماعية، داخلية وخارجية، كونها دفاعاً عن الذات والوجود وهو ما نراه مثلاً في مقاومة الاحتلال الصهيوني في فلسطين، والأمريكي في العراق... ومن هنا ندرك أن المقاومة مقدسة عند الأمم المختلفة وفق ما وقع على أوربا من ظلم العدوان النازي وتدمير أجزاء كثيرة منها، ما فرض عليها مقاومته، مما جعل مصطلح المقاومة يدخل في المعاجم الفرنسية إبان الحرب العالمية الثانية بوصفه مواجهة الاجتياح الألماني بقيادة هتلر والنازية، ثم غدت مقاومة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. فالمقاومة عند الشعوب مشروع تحرري وطني مارسته بأشكال شتى، وكذا كانت عند الفيتناميين وغيرهم.

وهذا كله أكد لنا أن المشروع الأمريكي الصهيوني إنما هو مشروع احتلال وهيمنة ولا بد من مقاومته بكل الأساليب.

وفي ضوء ذلك حاولنا أن نقف عند المقاومة الوطنية اللبنانية ثم عند انتفاضة الأقصى التي جرت أقلام كثيرة بالحديث عنها واختلفت حول جدواها وأشكالها، ونتائجها ... وبخاصة بعد أن تخلصت إسرائيل – بالسم – من ياسر عرفات.

ونرى أنه ما من باحث في أي موضوع قد قال الكلمة الأخيرة، ولهذا فإن ما قدمه الآخرون في الحديث عن المقاومة الوطنية اللبنانية وعن الانتفاضة أصبح جزءاً لا يتجزأ من مادة كل بحث. ومن ثم فقد أفاد بحثنا منها لكنه يطمح إلى أن يضيف كلمة أخرى في شأنها وإذا كانت هذا الرؤية تمثل مشروعية البحث العلمي فإن أي بحث يعالج القضايا الوطنية والقومية الكبرى يصبح ذا نكهة خاصة لأنها تمثل روح التعبير عن الوجود والانتماء ...

وقد استطاعت المقاومة الوطنية في فلسطين والعراق ولبنان أن تعمق هوية الإنسان العربي طفلاً أم شيخاً وأدرك أن المقاومة الشعبية النضالية وحدها من تحقق له تطلعاته ولذلك لا بد من التضحية. ومن ثم دخلت المرأة في عمق الصراع العربي الإسرائيلي، وطورت المقاومة أنظمتها وخططها، وأخذت ترسم آفاقها المستقبلية بخلق الوعي والخبرة والحنكة في التعامل مع الكيان

الصهيوني والدول الداعمة له، ومن ثم تنمية آليات الحفاظ على الوجود والأرض بتربية وطنية ترتبط بالعمق العربي والإسلامي والإنساني، وتعرية طروحات الصهيونية حول أرض الميعاد والأرض الخالية، وخرافة شعب الله المختار، وفضح كذبة هيكل سليمان بعد أن أثبتت المكتشفات الأثرية اختلاقها.

ومن ثم انتهى كل من المقاومة الوطنية اللبنانية والعراقية، والانتفاضة إلى تحقيق وعي وخبرة وثقافة أصّلت لثقافة المقاومة الحرة كما أصَّلت للثقافة العربية الإسلامية المتسامحة التي أكدت أنها ثقافة سلام ولم تكن يوماً ما ثقافة استسلام وخوف ... وأكدت في الوقت نفسه تضافر القوة المادية والخبرة العسكرية مع مفهوم الإسهام الحقيقي في تبني آليات إعلامية وتقنية فضائية لإيضاح حقيقة الكيان الصهيوني، مما أدى إلى كسب الرأي الدولي والوقوف من الآخر داخلياً وخارجياً موقف الواعي المنفتح على أفكاره دون اتهام أو محاباة.....

وهذا لا يعني أن الثقافة الوطنية أو القومية صارت قابلة للتسليع في سوق التداول والتفاوض، أي إن ثقافة السلام لا تماثل ظاهرة الاستسلام، وهي ليست كذلك. فثقافة السلام تعد منهجاً فعالاً لمواجهة ما يتعرض له الإنسان ولهذا فإن ثقافة السلام تعد جزءاً أصيلاً في تشكيل الوعي الثقافي للفكر السياسي وتمكين ثقافة المقاومة والتحرر، فردياً وجماعياً، وطنياً وقومياً وإنسانياً، أياً كان الشكل الذي تتخذه أو الحقل الذي تتفاعل فيه، وعلى مُختلف الصعد السياسية والثقافية والاقتصادية والإعلامية، والأدبية، و ....

هكذا يتضح لدينا أن ثقافة السلام ثقافة مقاومة تتشبث بالأرض والحق ولم يكن أي عمل بطولي جهادي خيالاً أو تخيّلاً وهمياً فقد شهدناه حركات نضال على مستويات عدة، ابتداءً بالمفكرين والساسة الأبطال في ساحات فلسطين ولبنان والعراق والسودان والصومال وانتهاء بالأقلام الأدبية التي عبَّرت عن ذلك في القصة والرواية والأشعار والمسرحيات... أو في تلك اللوحات الفنية التي ظهرت بالألوان والإيقاعات الموسيقية التي تمجد البطولة وصمود الأحرار، على حين كانت سياسة الاستسلام تقوّي ازدواجية الولاء للوطن ولغيره،

فيتمزق الانتماء ويسهل تدمير الكينونة الذاتية للفرد والمجتمع والوطن، إذ تنتقل الشخصية من انفصام إلى انفصام ذاتياً ووطنياً وقومياً و... في الوقت الذي تنتقل المفاخر الوهمية إلى ركام من القرارات المذلة التي أرادت للشعب العربي أن يعيش على هامش الحياة، وهو يلعق مرارة اليأس والقلق والإحباط والخوف والهزيمة. فسياسة الاستسلام التي تُسوقها الدوائر الغربية باسم ثقافة السلام وفق الخطاب الأمريكي الصهيوني؛ إنما تنتهي إلى تجزئة مفهوم الوحدة الوطنية، ليصبح الوطن دولاً متعددة، بعد أن غدت القومية حلماً بعيداً أي لم يعد هناك حاجة إلى الدولة الوطنية الجامعة لأعراق عدة، ومذاهب دينية شتى. فالواقع الراهن ـ كما يرى هذا الخطاب ـ يفرض إقامة دويلات مذهبية أو عرقية تحت أي مسمًّى كان. فإذا كانت الدولة القطرية عقبة كأداء لتحقيق الدولة القومية، فإن كل ما قيل هو الخطر الذي هَدَّد تحقيق الدولة الوطنية والقومية باعتبارها مستندة إلى مفهوم العروبة ولهذا تبقى ثقافة المقاومة ضرورة وعي ووجود للحفاظ على الذات والوطن والأمة، وضمان للحرية الفردية والجماعية، وأصل للسيادة والاستقلال.

وأياً ما تكن قيمة ثقافة المقاومة المسلحة فهي لا تكتمل بغير المقاومة السلمية، ولكل منهما آثاره الإيجابية البعيدة، وفق ما أكدت الأحداث التاريخية والمعاصرة. وتبقى المقاومة وحيدة الاتجاه إن لم تغرس القيم النبيلة في نفوس الناشئة بمختلف الوسائل... فالتربية الوطنية المقاومة أساس بناء الأوطان الحرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

obeikandl.com